إصدارات مخبر إسهامات علماء الجزائر في إثراء العلوم الإسلامية
كلية العلوم الإسلامية - جامعة الشهيد حمه لخضر - الوادي - الجزائر

بحوث الملتقى الدولي الثامن

جهود علماء الغرب الإسلامي في تنزيل النص القرآني على الواقع

بتاريخ: 21و22 ربيع الثاني 1444هـ / الموافق لـ 15 و16 نوفمبر 2022

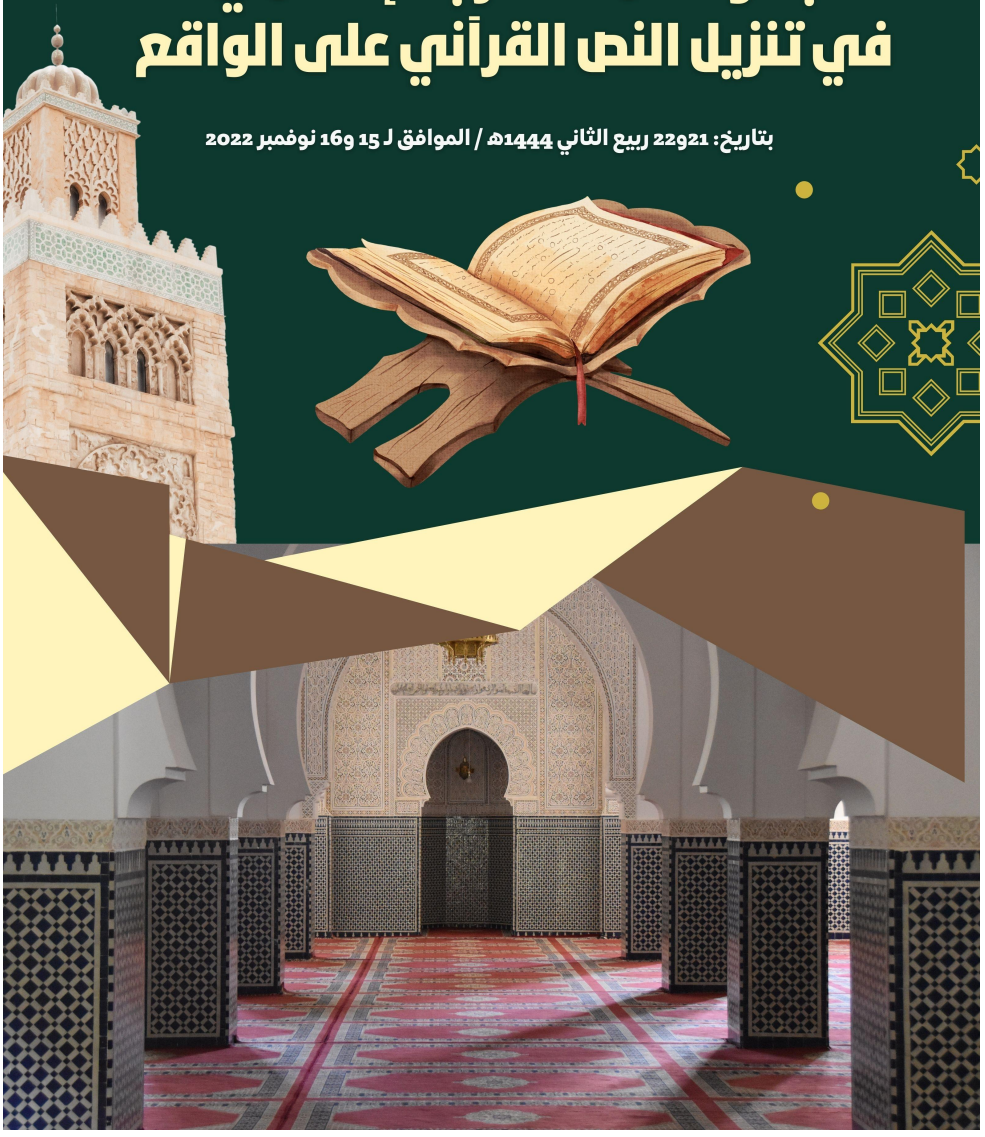

توظيف النص القرآني عند الإمام ابن باديس في غير التفسير

د/ الصادق ذهب
قسم الشريعة –معهد العلوم الإسلامية – جامعة الوادي
deheb-sadok@univ-eloued.dz

❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖

ملخّص

هذا البحث يدرس تنزيلات النص القرآني على الواقع عند الإمام عبد الحميد ابن باديس في آثاره باستثناء التفسير، وقد انبنى من مقدمة، وثلاثة مطالب؛ خصّصت الأول للتعريف بالشيخ ابن باديس، وأما الثاني، فذكرت فيه طريقته ومنهجه في تنزيل النص القرآني، ثمّ أوردت في المطلب الأخير نماذج اقتنصتها من مقالات ومنشورات الشيخ ابن باديس في مجلاته.

وانطلقت في دراسة الموضوع من الإشكال الآتي: كيف جاءت تنزيلات ابن باديس للنص القرآني على الواقع في آثاره من غير التفسير؟

وبعد معالجة الموضوع تمّ الإجابة على الإشكالات المطروحة من خلال النتائج التي توصّلت إليها، وهذه أهمها؛ تنزيلات الشيخ ابن باديس جاءت شاملة للعديد من القضايا السياسية، والدينية، والعقدية...وغيرها. ثمّ ذيّلت البحث بفهرس للمراجع والمصادر.

مقدّمة

إنّ الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمّدا عبده ورسوله، وبعد: فإنّ أفضل ما يتسابق إليه المتسابقون، ويتنافس فيه المتنافسون، مُدارسة كتاب الله، فهو خير ما صُرفت إليه الهمم، وأعظم ما نطق به لسان، ومُدّ به قلم، فقد أنزله الله على نبيّه محمّد ﷺ بأحسن بيان وأجمل عبارة، وأبلغ دلالة، غير أنّ الغاية العُظمى من إنزاله هي تدبّره، والعمل بمقتضى أحكامه، والاعتبار بقصصه وأخباره، والاستنارة بآياته ومعانيه، فهو كتاب هذه الأمّة المباركة في ماضيها وحاضرها ومستقبلها، وهو السبيل إلى عزّها ونصرها وسموّها.

وقد اجتهد العلماء قديما وحديثا في تدبّر كتاب الله، والغَوْص في بحور معانيه، فاستخرجوا منه دررا، واستنبطوا من آياته أحكاما غُررا، واستفادوا من مواعظه وتنزيلاتهم لآياته دروسا وعبرا، وإنّ من هؤلاء الأئمّة الأعلام الإمام المصلح: عبد الحميد بن باديس.

ونظرا لأهمّيّة ما خلّفه هذا الإمام الكبير من آثار عظيمة ومتنوّعة في مجال التنزيل؛ ارتأيت أن أستخرج نماذج منها للمشاركة بها في هذا الملتقى المبارك، فجاء هذا العمل موْسوما بـ: **"توظيف النص القرآني عند الإمام ابن باديس"**.

أوّلا- أهمّيّة الموضوع: تبرز أهمّيّة الموضوع في:

1- كون هذه الآثار تحوي دروسا ومقالات امتازت بروح النّزعة الإصلاحية التي نحتاج إليها في واقعنا المعيش.

2- مكانة الشيخ عبد الحميد بن باديس؛ بصفته أحد أعلام الجزائر خاصة، والعالم الإسلامي عامّة.

3- إنّ دراسة التنزيلات القرآنية الإصلاحية تُثري الملَكة الدعويّة والوعظية لدى الباحث.

ثانيا- إشكالية الموضوع:

كما هو معلوم أنّ الشيخ ابن باديس اشتهر بالتنزيل القرآني على أرض الواقع في تفسيره فقط، بينما للشيخ ابن باديس آثارا أخرى من غير التفسير، والمتمثّلة في الدروس والمقالات الإصلاحية والوعظية التي كان ينشرها في مجلاته، فمن هذا المنطلَق يمكن طرح الإشكالات الآتية: **كيف جاءت تنزيلات الإمام ابن باديس للنص القرآني على أرض الواقع في غير التفسير؟** وهذا هو السؤال الرّئيس، وإلى جانبه أسئلة فرعيّة أخرى هي:

1- ما هي الطّريقة التي سلكها الشيخ في تنزيلاته للنص القرآني؟

2- ما هو منهج الشيخ في تنزيلاته للنص القرآني؟

3- هل ارتكز الشيخ في تنزيلاته للنص القرآني على أسلوب واحد؟

ثالثا- المنهج المتبع:

اتبعت في دراستي لهذا البحث على:

1- المنهج الوصفي: وقد ظهرت معالم هذا المنهج في المطلب الأول المخصص لترجمة الشيخ ابن باديس.

2- المنهج التحليلي: من خلال تتبع مواضع التنزيل للنص القرآني، ودراستها

رابعا- الدراسات السابقة:

الدراسات الذي عنيت بدراسة تنزيل النص القرآني عند ابن باديس، هي:

1- الإمام عبد الحميد ابن باديس ومنهجه في الدعوة من خلال آثاره في التفسير والحديث، رسالة مقدمة لنيل الماجستير، للطالب عامر العرابي، قسم الكتاب والسنة، كلية أصول الدين، جامعة أم القرى، إشراف: سايمان صادق البيرة، 1408، 1409هـ؛ حيث خصّص فيها الباحث مبحثا كاملا للكلام ربط النصوص بالواقع عند ابن باديس في التفسير والحديث.

2- تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين، عبد العزيز الضامر، ط1، 1428هـ، 2007م،

سلسلة محكّمة تصدر عن جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ومن التفاسير التي اختارها في الشق التطبيقي من الكتاب، هو مجالس الشيخ ابن باديس.

3- تنزيل الآيات على الواقع عند ابن باديس من خلال تفسيره مجالس التذكير، هشام شوقي، مقال نُشر مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، بتاريخ: 2016/12/12م.

4- منهج الإمام ابن باديس في تنزيل آيات القرآن الكريم على الواقع، حدة سابق، وحبيبة زمالية، مقال نُشر في العدد الرابع من مجلة المنهل التابعة لجامعة الوادي، في جانفي سنة 2017م.

هذه الدراسات التي بين أيدينا انحصرت حدودها في التفسير، وتميّزت دراستي عن هذه الدراسات، أنها تناولت التنزيل القرآني عند ابن باديس في آثاره من غير التفسير.

خامسا- خطّة العمل:

الخطّة النّهائيّة لموضوع البحث، كانت كالآتي:

مقدّمة: وفيها بيانٌ لأهمية الموضوع، وطرحٌ لإشكاليته، وذكرٌ للدراسات السابقة، وعَرْضٌ لخطَّته النهائية.

المطلب الأوّل: التّعريف بالشيخ عبد الحميد بن باديس

المطلب الثاني: طريقة الإمام ابن باديس ومنهجه في تنزيل الآيات

المطلب الثالث: نماذج من تنزيلات الإمام ابن باديس في آثاره من غير التفسير

خاتمة: وفيها حَصْرٌ للنتائج التي تَوَصَّلت إليها، وإعطاءٌ لمجموعةٍ من التوصيات التي تزيد في خدمة الموضوع.

وختاما نسأل الله أن يغفر لنا ذنوبنا وخطأنا وعمدنا وجِدّنا وهزلنا وكلّ ذلك عندنا، والحمد لله ربّ العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المطلب الأول: التعريف بالإمام عبد الحميد بن باديس

الفرع الأول: اسمه ونسبه ومولده ونشأته

أوّلا- اسمه ونسبه:

هو عبد الحميد بن محمّد المصطفى بن المكّي بن محمّد كحول بن الحاج علي النوري بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن بركات بن عبد الرحمن بن باديس الصّنهاجي.

وَالِدُهُ محمّد المصطفى بن باديس صاحب مكانة مرموقة بين جماعة الأشراف، تبوّأ منصب عضو في المجلس الجزائريّ الأعلى والمجلس العام، أمّا والدته فهي زهيرة بن علي بن جلول من أسرة مشهورة في قسنطينة[1].

[1] عمار طالبي، آثار ابن باديس، 73/1؛ وموقع الشيخ ابن باديس على النت: http://www.binbadis.net، تاريخ الاطلاع: 2015/04/20، على الساعة: 06:57.

ونسب أُسْرَتِهِ عريق في الشّرف والمكانة، مشهور بالعلم والثّراء والجاه، عُرفت منه شخصيّات تاريخيّة كبيرة من أبرزها المعزّ بن باديس الصّنهاجيّ مؤسّس الدولة الصّنهاجيّة الأولى، التي خلفت الأغالبة على مملكة القيروان[1].

ثانيا- مولده:

وُلِدَ الشّيخ عبد الحميد بن باديس يوم الأربعاء 11 ربيع الثاني سنة 1307هـ الموافق لـ 4 ديسمبر سنة 1889م، على الساعة الرابعة بعد الظهر، وسُجّل في البلديّة يوم الخميس 12 ربيع الثاني سنة 1307هـ الموافق ليوم 5 ديسمبر سنة 1889م، بمدينة قسنطينة، وهو الولد البِكر لأبويه[2].

ثالثا- نشأته:

نشأ ابن باديس في أحضان تلك الأسرة العريقة في العلم والجاه، متمسّكة بالدِّين، ومحافظة على القيام بشعائره، وحريصة على تنشئة أبنائها على أساس تربية إسلاميّة وتقاليد أصيلة، حيث وجّهه والده وِجهة صالحة، فحرص على أن يربّيه تربية إسلاميّة خاصّة، فلم يُدخِله المدارس الفرنسيّة كبقيّة أبناء العائلات المشهورة، بل أرسل به إلى الكُتّاب[3]، وأوصاه قائلا: "يا عبد الحميد، أنا أكفيك أمر الدنيا، أُنفق عليك، وأقوم بكلّ أمورك، ما طلبتَ شيئا إلا لبّيتُ طلبك، كلمح البصر، فاكْفني أمر الآخرة، كُن الولد الصّالح العالِم الذي أَلقى به وجه الله."[4]

وفي هذا الصّدد يقول ابن باديس: "إنّ الفضل يرجع أوّلاً إلى والِدِي الذي ربَّاني تربية صالحة ووجّهني وِجهة صالحة. ورضي ليَ العلم طريقة أتّبعها ومشربا أرِدُه وقاتني وأعاشني وبراني كالسّهم وراشني وحماني من المكاره صغيرا وكبيرا. وكفاني كلف الحياة فلأشكرنّه بلساني ولسانكم ما وسعني الشكر. ولِأَكِل ما عجزت عنه من ذلك لله الذي لا يُضيع جزاء العاملين"[5].

الفرع الثاني: حياته العلميّة ونشاطه الإصلاحي

أوّلا- حياته العلميّة:

كانت الدروس الأولى التي تلقّاها ابن باديس هي حفظ القرآن الكريم، حيث أتمّ حفظه وعمره لم يتجاوز الثلاث عشرة سنة، ولمّا أبدى نجابة وذكاء قُدّم لصلاة التراويح مدّة ثلاث سنوات، ثمّ انتقل للدراسة على الشيخ حمدان الونيسي؛ حيث تلقّى على يديه علوم اللّغة

---

[1] ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ص82.
[2] عبد العزيز فيلالي، وثائق جديدة من جوانب خفية في حياة الإمام عبد الحميد بن باديس الدراسية، ص9.
[3] مصطفى احميداتو، إبن باديس وجهوده التربوية، ص62.
[4] عبد العزيز فيلالي، وثائق جديدة من جوانب خفية في حياة الإمام عبد الحميد بن باديس الدراسية، ص10.
[5] عمار طالبي، آثار ابن باديس، 138/2.

والفقه والحديث، وقد توطّدت الصّلة بينهما قبل هجرة الشيخ إلى المدينة المنوّرة[1].

تزوّج ابن باديس من ابنة عمّه يامنة بنت أبي بكر بن باديس في سنّ مبكّرة لا يزيد عمره على 15 سنة، كعادة كبار العائلات القسنطينيّة التي تفرح بالابن الأكبر، وتحتفظ ببنات العمومة لأبنائها، وكان ذلك سنة 1904م، فرُزق بولد أسماه على بركة الله إسماعيل، لكن هذه الزّيجة لم تستمرّ طويلا؛ لأنّ الزوجة رفضت الإقامة عند بيت أهله، فبقي ابنه تحت حضانة جدّه يدرس في حلقات والده إلى أن وصل عمره 17 سنة، حيث شاء القدر أن يُتوفّى في حادث مؤلم مفاجئ في 17 جوان 1919م[2].

وفي سنة 1908م[3] سافر إلى تونس ليُكمل تعليمه ويوسّع معارفه، وسنّه إذ ذاك تسعة عشر عاما، فانتسب إلى جامع الزيتونة، وعُرف في دراسته بالجدّ والنّشاط، فأخذ يتلقّى الثّقافة الإسلاميّة العربيّة، ويأخذ عن جماعة من أكابر علماء الزّيتونة وبعد ثلاث سنوات من الجدِّ والاجتهاد، تخرّج بشهادة التّطويع سنة 1910-1911م وعمره ثلاث وعشرون سنة، حيث كان ترتيبه الأوّل بين جميع الطلبة النّاجحين، كما كان الطالب الجزائريّ الوحيد الذي تخرّج من الزيتونة في تلك الدورة، فعلَّم سنة واحدة في جامع الزيتونة على عادة المتخرّجين في ذلك الوقت[4].

وأهمّ شخصيّتين تركتا الأثر العميق في تكوين شخصيّة ابن باديس العلميّة، وشُهد لهما بالرِّفعة والمهارة في خوض بحار المعارف والعلوم، هما الشيخان محمد النّخلي القيرواني، والطّاهر بن عاشور.

ولمّا رجع الشيخ من تونس عاد شُعلة من الحماسة وشهاباً وارياً من الدِّين، فقصد الجامع الكبير وأخذ في إلقاء الدروس وابتدأ بتدريس كتاب الشّفاء للقاضي عياض، ولكن المكائد حِيكت له، فعمل أعداؤه على إقلاقه ومنعه وأطفأوا عليه الضّوء وهو في الدرس فقرّر السّفر للحجّ إلى بيت الله الحرام ولقاء شيخه حمدان الونيسي، فاستأذن أباه وسافر[5]. وسافر[5].

وهناك التقى بالعلماء ومفكّري العالم الإسلاميّ، وسعى إلى شيخه حمدان الونيسي الذي كان قد هاجر إلى الحجاز فرارًا من اضطهاد السّلطة له، وعرض على تلميذه عبد الحميد أن يبقى هناك مُقيما مثله، كما التقى هناك بالشيخ محمد البشير الإبراهيمي، وربطت بينهما صداقة قويّة؛ إذ لازم عبد الحميد محمّد البشير طيلة ثلاثة أشهر قضياها في

---

[1] عبد المجيد رزّوقة، جهاد ابن باديس ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر، ص80.

[2] عبد العزيز فيلالي، وثائق جديدة من جوانب خفية في حياة الإمام عبد الحميد بن باديس الدراسية، ص12.

[3] ذكر فِيلالي أنّ سفر الشيخ ابن باديس إلى تونس كان سنة 1910م. (عبد العزيز فيلالي، وثائق جديدة من جوانب خفية في حياة الإمام عبد الحميد بن باديس الدراسيّة، ص15).

[4] أحمد حماني، صراع بين البدعة والسنّة، 246/1.

[5] عمّار طالبي، آثار ابن باديس، 80/1.

دراسة أوضاع وطنهما الذي تردّى أمام الوطأة الاستعماريّة عليه، كما التقى في المدينة المنوّرة حسين أحمد الهندي الذي استشاره في أمر أستاذه الونيسي، ولكن الشيخ الهنديّ أشار إليه بالرجوع إلى بلاده حيث تستفيد الجزائر من علمه وعمله[1].

وعند رجوعه، عرّج على مصر، وزار جامع الأزهر الشريف بالقاهرة ووقف على نظام الدراسة والتّعليم فيه، ثم زار مفتي الدّيار المصريّة الشّيخ محمّد بخيت المطيعيّ في داره، ولمّا قدّم له كتاب شيخه حمدان الونيسي قال له: "ذاك رجل عظيم"، وكتب له إجازة في دفتر إجازاته بخطّ يده[2].

وبهذا تكون قد انتهت المرحلة الأولى لتكوين فِكر ابن باديس، ليبدأ بعدها أهمّ مرحلة وأصعبها؛ وهي مرحلة الإصلاح والنّهوض بأمّة الجزائر، وتعليم أبنائها، وخاصّة عندما تأسّست جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين عام 1931م، وأصبح رئيسا لها.

ثانيا- نشاطه الإصلاحيّ:

عندما رجع ابن باديس إلى قسنطينة سنة 1913م انتصب بالجامع الأخضر للتدريس والدّعوة للإصلاح، فكان يقوم بإلقاء 12 درسا يوميّا، حيث ابتكر طريقة جديدة لتفسير القرآن الكريم.

وإلى جانب اجتهاده في الحقل الإصلاحيّ فتح واجهة جديدة للكفاح القلميّ، فأنشأ بقسنطينة جريدة "المنتقد" سنة 1925م، قامت بحملات صادقة ضدّ سياسة فرنسا التعسّفيّة فأوقفوا نشاطها، وخلفتها جريدة "الشهاب" شهر نوفمبر سنة 1925م، ثمّ تطوّرت إلى مجلّة سنة 1926م، وبعدها برزت جريدة "السنّة" سنة 1933م فأوقفوا نشاطها، لتصدر بعد 12 يوما جريدة "الشريعة" فعطّلتها الإدارة الفرنسيّة، وخلفتها جريدة "السّراط" عام 1933م[3].

ولا ننسى نادي الترقّي بالجزائر الذي استطاع ابن باديس النشاط من خلاله؛ حيث تمّ تأسيس "جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين" عام 1931م في اجتماع حضره العديد من علماء القطر الجزائريّ ومن شتّى الاتّجاهات الدينيّة والمذهبيّة، وانتُخب الشّيخ ابن باديس رئيساً لها والبشير الإبراهيميّ نائبًا له[4].

كما أظهر مواقفه السياسيّة في البرقيّات العديدة التي بعث بها إلى جهات إسلاميّة، وأخرى أجنبيّة يوضّح فيها موقف الجمعيّة من مختلف الأحداث خاصّة مسألة الخلافة الإسلاميّة، وقضيّة تقسيم فلسطين[5].

الفرع الثالث: شيوخه وتلاميذه

---

[1] محمد بهيّ الدين سالم، ابن باديس فارس الإصلاح والتنوير، ص33.

[2] ابن باديس، الشهاب، الجزء11، مجلد 11، ص607.

[3] مفدي زكريّا، الذكرى العشرون لوفاة الشيخ عبد الحميد بن باديس، (مقال)، ص 78، 79.

[4] المرجع السابق، ص79.

[5] مصطفى احميداتو، عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية، ص81.

أوّلا- شيوخه: تتلمذ ابن باديس مباشرة على أكثر من عشرين أستاذا من الجزائر، وتونس، والمدينة المنوّرة، ومصر، نذكر منهم[1]:

محمد الصادق بن القاضي (ت1911م)، ومحمد العزيز الوزير (ت1911م)، ومحمد البشير صفر (ت1917م)، ومحمد حمدان الونيسي (ت1920م)، ومحمد النخلي القيرواني (ت1924م)، وأبو الفضل محمد الجيزاوي (ت1926م)، ومحمد بخيت المطيعي (ت1936م)، ومحمد الصادق النيفر (ت1938م)، ومحمد بن يوسف (ت1938م)، وحسين أحمد الفيض أبادي الهندي (ت1957م)، ومحمد الخضر بن الحسين (ت1958م)، ومحمد الطاهر بن عاشور(ت1973م).

ثانيا- تلاميذه:

من الطبيعيّ على أيّ معلّم مكث في التعليم مدّة ثمان وعشرين سنة لابدّ وأن يكون له تلاميذ، فكذلك حال الشيخ ابن باديس الذي كان يدرس عنه الطلاب مدّة أربع سنوات، فمن كان قادرا على الاستزادة في العلم سافر إلى الأزهر أو الزيتونة، وإلّا وجّهه الشيخ ابن باديس للتعليم، وهكذا كان تعامله مع الطّلبة طيلة مدّة تعليمه، حتّى أصبحوا يُعَدّون بالمئات، ويقوم على التدريس معه نجباء المتخرّجين من مدرسته، أو من مريديه، وعدد تلاميذه لا يمكن حصره، حتّ إنّ الشيخ أحمد حمّاني ذكر أكثر من 50 تلميذا؛ إذ يُعدّ واحدا منهم، ثمّ قال في خاتمة إحصائه للتلاميذ: "...مات بعضهم، واستشهد آخرون، وما يزال بعضهم في الحياة"[2]، ولنكتف بذكر بعضهم وهم: مبارك الميلي (ت1945م)، والهادي السنوسي (ت1956م)، والفضيل الورتلاني (ت1959م)، والرّبيع بوشامة (ت1959م)، وعبد الكريم عقون (ت1959م)، وباعزيز بن عمر (ت1977م)، ومحمد صالح بن عتيق (ت1993م)، وأحمد حماني (ت1998م)[3].

الفرع الرابع: وفاته وآثاره وأقوال العلماء فيه

أوّلا- وفاته:

لقد أُصيب الشيخ عبد الحميد بن باديس بمرض شديد الوطأة نتج عنه ضعفٌ في الكلى، وانعدام تجمّع البول، وهذا المرض الخطير أعيى الأطبّاء، وألزمه الفراش ثلاثة أيام، ثم فاضت روحه الطيّبة، ولحقت بالرّفيق الأعلى بُعيْد زوال يوم الثلاثاء 08 ربيع الأوّل 1359هـ، الموافق لـ 16 أفريل 1940م، وشُيّعت جنازته يوم الأربعاء في موكب حافل حضره زهاء السّبعين ألف شخص، يتقدّمهم أعضاء جمعيّة العلماء، وطلّاب الجامع الأخضر، وصلّى عليه الشيخ العربي التبسّي، وأبّنه بكلمة مؤثّرة ممّا جاء فيها: "كان ابن باديس هو الجزائر، فلتكن

[1] عبد العزيز فيلالي، وثائق جديدة من جوانب خفية في حياة الإمام عبد الحميد بن باديس الدراسية، ص12، مع التصرف في الترتيب.

[2] أحمد حماني، صراع بين السنة والبدعة، 262/2، 263.

[3] المرجع نفسه، 263/2، مع التصرف في الترتيب.

الجزائر اليوم ابن باديس"، ودُفن في روضة أسرته بحيّ الشهداء قرب مقبرة قسنطينة[1].

ثانيا- آثاره:

إنّ المتأملّ في حياة الإمام ابن باديس يجده دائم النّشاط والحيويّة رغم ما كان يعانيه من طرف المستدمر الفرنسيّ، فتارة تجده في المسجد يُلقي على تلاميذه الدرس بعد الآخر، وتارة تجده صحافيّا، وتارة تجده مُفتيا، وتارة تجده يؤسّس لمدارس الفقه والحديث، وكأنّ الكسل والنوم لا يعرفان له سبيلا، وقد أُثر عنه قوله: "شغلَنا تأليف الرّجال عن الكتب"[2]، فرغم المسؤوليّة التي كانت على عاتقه إلّا أنّه لم يمنعه ذلك من التّأليف، بحيث جُمعت من أفواه تلاميذه ومُحبّيه، وكذا من المجلّات التي أراد المستدمر الفرنسيّ طمسها، وهذا ما أمكن استخلاصه:

- تفسير ابن باديس؛ مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير: طُبع ونُشر سنة 1948م.

- مجالس التذكير من حديث البشير النذير: طبعته وزارة الشؤون الدينية بالجزائر سنة 1983م[3].

- العقائد الإسلاميّة من الآيات القرآنيّة والأحاديث النبويّة: وهي عبارة عن الدروس التي كان يُمليها الأستاذ ابن باديس على تلاميذه، في أصول العقائد الإسلامية وأدلتها من القرآن والسنّة النبويّة على الطريقة السلفيّة.

- رجال السّلف ونساؤه: وهي مجموعة من المقالات ترجم فيها ابن باديس لبعض الصحابة رضوان الله عليهم، وما لهم من صفات اكتسبوها من الإسلام، وما كان من أعمالهم في سبيله، نُشرت تلك التراجم في مجلة الشهاب.

- تحقيق كتاب العواصم من القواصم للإمام ابن العربي، وقدّم له وطبعه سنة 1928م، في جزءين بمطابع الشهاب بقسنطينة.

- تراجم أعلام: ترجمة لكثير من أعلام الإسلام من السلف والخلف، في صفحات مجلة الشهاب تحت هذا العنوان.

- آثار ابن باديس: قامت وزارة الشؤون الدينية في الجزائر بجمع كثير ممّا حوته صحافة الجمعية من نشاطات الإمام عبد الحميد بن باديس في مجالات: التربية والتعليم، والرحلات التي كان يقوم بها داخل الوطن لنشر دعوته[4].

- القصص الهادف. - مبادئ الأصول. - رسالة جواب سؤال عن سوء مقال. - تحفة المستهدي في إثبات خروج المهدي. - التأفين لمنكر التأبين.

أما باقي الآثار الأخرى فقد نُشرت كلّها في شكل مقالات ومحاضرات وخطب وقصائد

---

[1] محمد الدرّاجي، الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد، ص17.

[2] ابن باديس، مجالس التذكير، ص 14.

[3] مصطفى احميداتو، عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية، ص81.

[4] مصطفى احميداتو، عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية، ص81.

شعرية في صحف "الشّهاب"، و"البصائر"[1].

ثالثا- أقوال العلماء فيه:

- ابن نبيّ: "لقد بدأت معجزة البعث تتدفّق من كلمات ابن باديس، فكانت تلك ساعة اليقظة، وبدأ

الشعب الجزائريّ المخدَّر يتحرّك، ويا لها من يقظة جميلة مباركة..."[2].

- البشير الإبراهيميّ: "وعبد الحميد بن باديس عظيم بأكمل ما تُعطيه الكلمة من معنى؛ فهو عظيم في علمه، عظيم في أعماله، عظيم في بيانه وقوّة حجّته، عظيم في تربيته وتثقيفه لجيل كامل، عظيم في مواقفه من المألوف الذي صيّره السكوت ديناً، ومن المخوف الذي صيّره الخضوع إلها، عظيم في بنائه وهدمه، عظيم في حربه وفي سِلمه، عظيم في اعتزازه بإخوانه، ووفائه لهم، وعرفانه لأقدارهم، وإذا كان من خوارق العادات في العظماء أنّهم يبنون من الضّعف قوّة، ويُخرِجون من العدم وجودًا، ويُنشِئون من الموت حياة، فكلّ ذلك فعل عبد الحميد بن باديس من الأمّة الجزائرية"[3].

- محمد بن الحسن الحجويّ: أرسل نسخة من كتابه (الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي) هديّة للشيخ ابن باديس، فبعث له بتقريظ أثبته مؤلّف الكتاب قائلا: "تقريظ علاَّمة القطر الجزائريّ، أشهر عالم مفكّر فيه، ورئيس علمائه كافّة، الشيخ عبد الحميد بن باديس، المدرّس بقسنطينة، وصاحب مجلّة الشّهاب"[4].

المطلب الثاني: طريقة الإمام ابن باديس ومنهجه في تنزيل الآيات

في هذا المطلب نسلّط الضوء على الخطوط العريضة لطريقة الشيخ ابن باديس في تنزيل النص القرآني، وبيان أسلوبه في ذلك، وهي كالآتي:

الفرع الأوّل: طريقة الشيخ ابن باديس في تنزيله لآيات القرآن

من خلال قراءتي لنماذج التنزيل عند الشيخ بدت لي طريقته في التنزيل، وهي:

1- عادة ما يتوّج الشيخ مقالاته بعناوين توحي إلى صلب الموضوع الذي يريد الكلام عنه، أو بعض أفكاره، حتّى يسهّل على القراء بجميع أصنافهم فهمه، ومعرفة ما المطلوب منهم من خلاله، مثل قوله: "فلسطين الشهيدة"[5]، فهذا العنوان عند قراءتك له يزرع في نفسك الإحساس بالمسؤولية الكبيرة تجاه نصرة أهلنا في هذه الأراضي المقدّسة، وهو التنزيل المراد في الموضوع.

---

[1] ابن باديس، مجالس التذكير، 39/1.

[2] مالك بن نبي، شروط النهضة، ص24.

[3] أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، 589/3.

[4] الحجوي، الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، 43/1.

[5] آثار ابن باديس، ت: عمار طالبي، ج3، ص413، ط1، 1388هـ، 1968م، دار ومكتبة الشركة الجزائرية.

2- تصدير الموضوع بمقدمة مشوّقة تهيّئ القارئ للدخول في الموضوع وقراءته، مثل قوله: "كنت- وأنا قادم للعاصمة من مصيف "حصن الماء" - أحوم على موضوع أختاره للمحاضرة التي اقترحها عليَّ أعضاء النادي المحترمون. فوقع فكري على المرأة وحالتها وواجباتها وحقوقها. وبينما أنا أفكر فيها وأجمع أطراف الحديث في شأنها إذا أنا برجل مسلم جزائري ببرنوسه وقنوره وقف أمامي- لم يقف أمام حسي ولكن وقف أمام خيالي- وأخذ ذلك الرجل يخاطبني بشدة وعنجهية ويقول:..."، فهذه المقدمة تتركك أخي القارئ تتشوّق لمعرفة تفاصيل الموضوع الذي عناه الشيخ، وتنزيلاته.

3- الانتقال بسلاسة بين مفاصل الموضوع، وبأفكار مرتّبة حتّى يسهّل على القراء استيعاب الموضوع؛ لأن هدف الشيخ من خلاله هو الإصلاح.

4- تنوّع طريقة التنزيل عند الشيخ، فمنها مثلا:

- سيره على طريقة المفسرين فيذكر الآية ثمّ يورد التنزيل: مثل صنيعه عند قوله تعالى: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: 228]؛ حيث قال: "فعلينا أن نعلّمها ما تكون به مسلمة، ونعرفها من طريق الدين ما لها وما عليها"[1].

- وتارة يخالفهم فيورد معنى الآية ثمّ تنزيلها، ويختم بذكر الآية، ومثاله: "وأوحى الله إليه بذبح ابنه فامتثل، واستشار ابنه إسماعيل فأجاب وقبل، فطرحه للذبح وأسلما لله في القصد والعمل، ففداه الله بذبح عظيم، وترك عليه في الآخرين سلام على إبراهيم، وأبقى سنة الضحية في الملة الإبراهيمية، والشريعة المحمدية، تذكاراً بهذا العمل العظيم، والإسلام الصادق لرب العالين، ليتعلم المسلمون التضحية لله بالنفس والنفيس، وليعلموا أن المسلم من صدق قوله فعله، ومن إذا جاء أمر الله كان لله كله.

فتدبروا أيها المسلمون في هذا السر العظيم ومرنوا أنفسكم على التضحية في كل وقت في سبيل الخير العام بما تستطيعون ولا تقطعوا عن التضحية ولو ببذل القليل، حتى تصير التضحية خلقا فيكم في كل حين واجعلوا قصة هذا النبي الجليل نصب أعينكم، وتدبروا دائما ما قصه الله منها في القرآن العظيم عليكم، وأحيوا هذه السنة ما استطعتم، وأسلموا لله رب العالمين.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ثمّ تلا قوله تعالى: ﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[الصافات: 100 – 105]"[2].

الفرع الثاني: معالم منهج ابن باديس في تنزيلاته

---

[1] آثار ابن باديس، ج3، ص469.

[2] آثار ابن باديس، ج3، ص530.

بعد اطّلاعي على النماذج المدروسة برزت لي بعض المعالم المنهجية في تنزيلات الشيخ، وهي:

1- اقتصاره غالبا على إيراد الشاهد القرآني: ومثاله عندما أراد الكلام عن موضوع (فلسطين الشهيدة)؛ حيث ضمّن تمهيده الشاهد القرآني المعني بالتنزيل، وهو قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ ﴾[الإسراء: 1][1].

2- التنوّع الأسلوبي في تنزيل الآيات: تنوعت أساليب الشيخ في طرحه للمواضيع التي عالجها بالتنزيل القرآني، فمنها:

أ- التنزيل انطلاقا من المواقف الشخصيّة: ابن باديس في موضوعه (الرجل المسلم الجزائري)، انطلق من التنزيل الافتراضي، عن طريق الحوار الذي دار بينه وبين الرجل في الخيال[2].

ب- التنزيل انطلاقا من القصص القرآني: في موضوع (خطبة عيد الأضحى) انطلق الشيخ في تنزيله من قصة سيدنا إبراهيم مع ابنه إسماعيل عليهما السلام وما جاء في أحداثها[3].

ت- التنزيل عن طريق المقارنة: نجد هذا الأسلوب عند طرحه الموضوع (التسامح الإ سلامي)؛ حيث جعل مقارنة بين الدين الإسلامي، وغيره من الملل المتواجدة في الجزائر في زمنه[4].

ث- استعماله الأسلوب المباشر وغير المباشر في التنزيل من حيث التصريح: فمن **الأول**: ما جاء في موضوع خطبة عيد الأضحى؛ حيث قال في آخر كلامه: "ليتعلم المسلمون التضحية لله بالنفس والنفيس، وليعلموا أنّ المسلم من صدّق قوله فعله، ومن إذا جاء أمر الله كان لله كله. فتدبروا أيها المسلمون في هذا السر العظيم، ومرّنوا أنفسكم على التضحية في كل وقت في سبيل الخير العام بما تستطيعون ولا تقطعوا عن التضحية ولو ببذل القليل..."[5]. فهذه دعوة إلى الجهاد ومقاومة الاستعمار الفرنسي، من خلال تأكيده على التضحية. ومن **الثاني**: ما رأيناه في موضوع (الرجل المسلم الجزائري)؛ حيث قال بعد قوله تعالى:﴿ وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِى عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ [البقرة: 228]: "فعلينا أن نعلّمها ما تكون به مسلمة، ونعرفها من طريق الدين ما لها وما عليها"[6]. فأسقط معنى الآية الظاهر، وهو أنّ كما أنّ لهنّ حقوق، فإن عليهن واجبات[7].

---

[1] آثار ابن باديس، ج3، ص413.
[2] آثار ابن باديس، ج3، ص464.
[3] آثار ابن باديس، ج3، ص530.
[4] آثار ابن باديس، ج3، ص488-490.
[5] آثار ابن باديس، ج3، ص530.
[6] آثار ابن باديس، ج3، ص469.
[7] تفسير المراغي، ج2، ص166، ط1، 1365هـ، 1946م، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر.

4- اكتفاؤه ببيان المعنى الظاهر للآية، وحملها على العموم عند التنزيل: مثل ما جاء في كلامه عن آثار الوطنية الإسلامية العادلة (الحق فوق كل أحد والوطن قبل كل شيء)، فقال: "وتخاطب جميع الأمم والأوطان بقوله تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾[البقرة: 194] [1].

5- استعماله لصيغ في التنزيل:

أ- قوله: "وهذه هي وطنيتنا..."[2].

ب- قوله: "فأمام هذا الرجل الخيالي المرعب وحُججه الدامغة ما وسعني إلا العدول عن التفكير في المرأة إلى التفكير في الرجل..."[3].

ت- قوله: "كلّ مسلم مسؤول..."[4].

ث- قوله: "فالفضل في منازل الدنيا والآخرة بما هو منك..."[5].

ج- قوله: "نكتب هذا ليطّلع قرّاؤنا..."[6].

ح- قوله: "ليعلم المسلمون...فتدبروا أيها المسلمون"[7].

6- من أهم النقاط المنهجية الظاهرة على تنزيلات الشيخ ابن باديس، التنزيل الإجمالي لآيات الموضوع الذي يعالجه، وهو على هيأة التفسير الموضوعي: مثال ذلك عند كلامه عن (لا فضل بالمال لمن ذا فضل فيه)؛ حيث جمع جملة من الآيات على خطى الدراسة الموضوعية للموضوع القرآني[8].

المطلب الثالث: نماذج من تنزيلات الإمام ابن باديس في آثاره من غير التفسير

أتناول في هذا المطلب نماذج من تنزيلات الإمام ابن باديس في آثاره، من خلال منشوراته في جريدة الشهاب، وغيرها وسأعنون لها بحسب مجالات التنزيل الإصلاحي على النحو الآتي:

الفرع الأول: الإصلاح السياسي

الشيخ ابن باديس كان مهتما بالإصلاح السياسي، على المستويين؛ الدّاخلي، والخارجي، سأذكر مثالا لكليهما:

أولا- الإصلاح السياسي الداخلي

عنوان المقال: الحقّ فوق كلّ أحد والوطن قبل كل شيء

---

[1] آثار ابن باديس، ج3، ص368.
[2] آثار ابن باديس، ج3، ص368.
[3] آثار ابن باديس، ج3، ص365.
[4] آثار ابن باديس، ج3، ص414.
[5] آثار ابن باديس، ج3، ص473.
[6] آثار ابن باديس، ج3، ص493.
[7] آثار ابن باديس، ج3، ص530.
[8] آثار ابن باديس، ج3، ص471.

بهذا الشعار توّج الإمام ابن باديس به جريدته (المنتقد) في رأس كلّ عدد منها لأكثر من عشرين سنة، وأراد الشيخ من خلال صنيعه ترسيخ وبيان حقيقة الوطن والوطنية في أذهان من لا يفقهونها، وقد نبّه الشيخ إلى أنه لا يفقه هذا الأمر إلاّ من غُذّي بالعلم الصّحيح الذي يُشعره بالحب لكل من يجد فيهم صورته الإنسانية، ويصيّر له الأرض كلها وطنا، وهذا هو وطنه الأكبر، فلا يعرف ولا يحب الوطن الأكبر إلا من عرف واجب الوطن الكبير، وهو بلاده وأرضه، ولا يعرف ولا يحب الوطن الكبير إلا من عرف وأحب الوطن الصغير، وهو بيته وأسرته.

وهذه هي الوطن والوطنية الحقّة، والوطنية الإسلامية العادلة؛ إذ هي التي تحافظ على الأسرة بجميع مكنوناتها وعلى الأمة بجميع مقوماتها وتحترم الإنسانية في جميع أجناسها وأديانها.

ولكي يثبّت الشيخ هذا الميثاق القيّم في نفوس أفراد شعبه بيّن آثار هذه الوطنية الإسلامية العادلة وفوائدها مستندا إلى جملة من آيات التنزيل، فقال:

- "هي تخاطب البشرية كلها في جميع أجناسها بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾[الإسراء: 70].

- وتخاطبها في جميع أديانها بقوله تعالى: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾[الكافرون: 6].

- وتخاطب جميع الأمم والأوطان بقوله تعالى: ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[الأنفال: 61]، وبقوله تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[1] [البقرة: 194] "[2].

ثمّ كرّر الكلام مؤكّدا على التمسك بهذه الوطنية الإسلاميّة العادلة، وربط الحضور وكلّ مسلم بهذا الميثاق النّفيس إلى أن يلقى ربّه؛ حيث قال: "وهذه هي وطنيتنا معشر المسلمين الجزائريين الأفارقة ووطنية كل مسلم صادق في إسلامه ووطنيته. وقد أعلنّاها يوم قلنا...: (الحق فوق كل أحد والوطن قبل كل شيء) وسرنا على مقتضاها إلى اليوم في كل ما قلنا وكتبنا وسنبقى عليها- ككل مسلم جزائري- حتى نلقى الله إن شاء الله"[3].

---

[1] الآثار والفوائد التي استنبطها الشيخ ابن باديس من الآيات الثلاثة الأخيرة اعتبر فيها عموم اللفظ، فهي وردت في المشركين، وخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وللمسلمين. الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ت: أحمد محمد شاكر، ج24، ص661، ط1، 1420هـ، 2000م، مؤسسة الرسالة. وج14، ص40. والقاسمي، محاسن التأويل، ت: محمد باسل عيون السود، ج2، ص60، ط1، 1418هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

[2] آثار ابن باديس، ج3، ص368.

[3] آثار ابن باديس، ج3، ص368.

نلاحظ في هذا المقال أنّ الشيخ ابن باديس أراد أن يرسخ معنى الوطنية الإسلامية العادلة في قلوب أفراد الوطن، وربطهم بما جاء في القرآن الكريم من هدايات وتنزيلات، معتبرا فيها عموم اللفظ، في معانيها، وحتّى في لفظ التنزيل، وهذا حتّى يمكّن الفرد المسلم الجزائري من استيعاب هذا المبدأ المبارك، ويشجّعه على الامتثال له.

ليت شعري أين نحن الآن من هذه الوطنيّة لقد تخلّى أناس في زمن مضى عن المعنى الباديسي لهذه الوطنية الإسلامية العادلة، فكانت تعيش ألاّ وطنيّة، وترفع شعار (الحق فوق الضعيف والوطن بعد كلّ شيء)؛ لذا عشنا في بلادنا فترات زمنية عصيبة والفتن بأنواعها تعصف بنا من كل جانب، وأوضاع الوطن متقلّبة غير ثابتة لمدة زمنية طويلة تتلاعب بمصيره أياد داخلية وخارجية خائنة لا علاقة لها بالوطن والوطنية.

ولكن هناك إرهاصات وإضاءات نراها تبشّر ببزوغ شمس جديدة للوطنية السمحة شعارها (الحق فوق كل أحد والوطن قبل كل شيء) تكشف لنا عن أياد صالحة مصلحة تحاول النهوض بهذا الوطن واسترجاع سيادته المفقودة حتى يصل إلى برّ الأمان.

ثانيا- الإصلاح السياسي الخارجي

عنوان المقال: فلسطين الشهيدة

هذا عنوان مقال نشره الإمام ابن باديس في مجلة الشهاب؛ حيث افتتحه بقيمة المسجد الأقصى، وأنه ثالث الحرمين الشريفين وأنّ رحابه مثل رحاب مكة والمدينة، ثمّ تلا قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ ﴾ [الإسراء: 1]، حتّى يربط قلب القارئ المسلم بهذا المسجد ويعظّم قدسيته في نفسه، ويزرع فيه روح المسؤولية، ويهيأه لما سيأتي من خطاب في مقاله حول ما يجري فيه من ظلم وعدوان، تنبيها له بأنّ كل ما هو واقع به كأنه واقع برحاب المسجد الحرام ومسجد طيبة.

وبعد أن أعطى الشيخ ابن باديس لمحة موجزة حول الحالة العامة التي كانت عليها فلسطين ألوف السنين؛ حيث بيّن فيها نشأة هذا الاستعمار على أرض فلسطين الآمنة والرحاب المقدّسة، فأحالها جحيما لا يطاق، وجرحوا قلب الإسلام والعرب جرحا لا يندمل.

ثمّ التفت الشيخ رحمه الله إلى القارئ المسلم منبّها له وموقظا فيه ضميره النائم تجاه فلسطين والأقصى، فقال: "كل مسلم مسؤول أعظم المسؤولية عند الله تعالى على كل ما يجري هنالك، من أرواح تزهق، وصغار تُيتم، ونساء تُرمّل، وأموال تُهلك، وديار تُخرّب، وحرمات تُنتهك، كما لو كان ذلك كلّه واقعاً بمكة أو بالمدينة، إن لم يعمل لرفع ذلك الظلم الفظيع بما استطاع"[1].

ولقد ذكر لنا الشيخ نموذجا يُقتدى به من رجل جزائريّ عامّي من أوساط الناس

[1] آثار ابن باديس، ج3، ص414.

متمسك بدينه يتألّم من حالة القدس الشريف، ويعظّم فيه هذه الروح وهذا الشعور.

فنرى الإمام ابن باديس كيف ابتدأ بذكر الآية القرآنية، ثمّ جعل لها تنزيلا ربط به قلوب المسلمين وحبهم لثالث الحرمين وأولى القبلتين، ولكون البركة اكتنفته من نواحيه كلّها، فكان أحرى لهذه الضمائر الميتة أن تحيا من جديد فتدفع الظلم والعدوان عن مقدّسها.

فلسطين الشهيدة شيخنا لا تزال شهيدة إلى يومنا هذا، وللأسف لقد انتشر في زماننا ما يسمّى، بالتطبيع، فجلّ الحكومات العربية والإسلامية يعيشون التطبيع مع الصهاينة الغاصبين، وأمّا نموذج الفرد الجزائريّ الذي ذكرته يا شيخنا فقد توارثناه جيلا بعد جيل، ونبشرك بأنّ الجزائر حكومة وشعبا ترفع شعار: (الجزائر مع فلسطين ظالمة أو مظلومة)، وهي تؤكّد السير عكس تيار التطبيع.

الفرع الثاني: الإصلاح الاجتماعي

عنوان المقال: الرجل المسلم الجزائري

أصل هذه المقالة محاضرة ألقاها الإمام ابن باديس ارتجالا بنادي الترقي بالعاصمة، ثمّ أعاد نشرها سنة 1929م في مجلة الشهاب.

وقد ذكر الشيخ سبب اختياره لهذا العنوان، من خلال الحوار الخيالي الذي جرى بينه وبين الرجل المسلم الجزائري، وذلك عند اختيار الشيخ أوّل الأمر الكلام عن المرأة وحالتها وحقوقها وواجباتها، فأتاه ذلك الرجل المسلم الجزائري يحتجّ كيف تقدمون موضوع المرأة عن الرجل الذي هو أبوها، وزوجها، ووليها ومصدر خيرها وشرها، فما كان على الشيخ إلا أن يستجيب لرغبة هذا الرجل؛ حيث قال الشيخ: "فأمام هذا الرجل الخيالي المرعب وحُججه الدامغة ما وسعني إلا العدول عن التفكير في المرأة إلى التفكير في الرجل فاخترت موضوع المقالة: "الرجل المسلم الجزائري"[1]، ثمّ قسّم الشيخ محاضرته بالكلام على هذا الرجل المسلم الجزائري أوّلا من نواح ثلاث: رجولته، إسلاميته، جزائريته، ثمّ ثنّى كلامه على المرأة المسلمة الجزائرية كذلك من نواح ثلاث: أنوثتها، إسلاميتها، جزائريتها.

وعند كلام الشيخ عن رجولة الرجل وإسلاميته، وأنوثة المرأة وإسلاميتها، نراه التمس هداياتها من آيات التنزيل، فابتدأ كلامه بتعريف هذا الرجل معنى الرجولة الحقيقية التي تجعله مؤهلا للقيام برئاسة بيته، واستحقاق ولايته، وبيان واجباته نحو أهل بيته؛ حيث ربط الشيخ كلامه بآي القرآن، فقال: "هو رئيس البيت: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ﴾[النساء: 34]، فعليه واجب الرعاية: بالسعي والتكسب، بالتهذيب والتعليم، للزوجة، وللأبناء، وللبنات: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ ﴾[التحريم: 6]، وله حق

[1] آثار ابن باديس، ج3، ص365.

الولاية: ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾[البقرة: 228]، درجة الولاية بالنظر والتدبير، والتنظيم والتسيير، فهو السيد في بيته ليكون سيِّداً في قومه"[1].

وبعدها انتقل الشيخ إلى الصفة الثانية، وبيّن للرجل حقيقة إسلاميّته التي يجب أن يتّصف بها حتّى يحصّل السعادة الأخروية التي لا يخفى بيانها على أحد، والسعادة الدنيوية التي خفي على كثير من الناس أمرها؛ لذا كشف الشيخ ابن باديس لهؤلاء عن حقيقتها، وكيف دعا هذا الإسلام إلى تحصيل هذه السعادة الدنيوية من خلال آيات التنزيل؛ حيث قال: "وأما تحصيلها لسعادة الدنيا فقد صار في هذه العصور المتأخرة عند كثير من الناس مما يخفى، مع أنّ دعوته إلى تحصيل السعادة والسيادة في الدنيا في آيات القرآن العظيم كثيرة جداً، فدعا إلى العلم بمثل قوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾[طه: 114]، وللفلاحة بمثل قوله تعالى: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾[هود: 61]، وإلى الصناعة وإتقانها بمثل قوله تعالى: ﴿ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ﴾[سبأ: 11]، وإلى التجارة بمثل قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾[الجمعة: 10]..."[2].

ثمّ نبّه الشيخ هذا الرجل إلى أنّ الإسلام كما دعا إلى تحصيل السعادة الدنيوية، أيضا جعل لها ضوابط حتى لا تكون هذه السعادة على حساب أيّ مسلم آخر، فبيّن له بأنّ الإسلام كذلك يدعوا بالمقابل إلى السلامة، والمحبة، والترقي بالعلم، والسيادة بالعدل والإحسان، فقال: "وهو إلى هذا دين السلامة و«الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»[3]، ودين المحبة «لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»[4]، ودين الترقّي بالعلم: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الزمر: 9]، ودين السيادة بالعدل، والسيادة بالإحسان ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾[النحل: 90]"[5]. وبعدها بيّن الشيخ للرجل جزائريّته ونسبته إليها، وواجباته نحوها، ووضّح له طريق العلم بهذا والعمل به.

ثمّ أردف الشيخ الكلام عن شقيقة هذا الرجل في الخِلقة والتكليف، وشريكته في البيت والحياة، وبيّن دليل الخِلقة على ما بين الرجل والمرأة من لحمة اتصال، وما لكل واحد منهما

---

[1] آثار ابن باديس، ج3، ص465.

[2] آثار ابن باديس، ج3، ص466.

[3] رواه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عمرو بن العاص رضي الله عنهما، حديث رقم: 7086، ج11، ص658، ت: شعيب الأرنؤوط، وآخرون، ط1، 1421هـ، 2001م، مؤسسة الرسالة، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

[4] رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، حديث رقم: 13، ج1، ص12، ت: محمد زهير بن ناصر الناصر، ط1، 1422هـ، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي).

[5] آثار ابن باديس، ج3، ص466.

على الآخر من توقف لبلوغ الكمال؛ حيث ابتدأ بأصغر جزء من مادة تكوينهما، ولكي يتمّ البيان عرض ذلك على ما جاء فيه من آي القرآن، فقال: "...ويبتدئ ذلك في أصغر جزء وأول مادة للتكوين، وهو الجوهر الفرد في اللسان العلميّ القديم، والكهرباء في اللسان العلميّ الحديث، فإنه مركب من قوتين زوجيتين موجبة وسالبة، مصداق قوله تعالى: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[الذاريات: 49]، ويعمّ هذا القانون جميع المخلوقات ومنها الإنسان، كما قال تعالى: ﴿ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴾[النبأ: 8] "[1]، ثمّ وضّح الشيخ إسلامية هذه المرأة، من خلال قوله تعالى: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[البقرة: 228]، وانطلاقا منها قال الشيخ: "فعلينا أن نعلمها ما تكون به مسلمة، ونعرفها من طريق الدين ما لها وما عليها"[2].

الملاحَظ في مقال الشيخ أنّه وضع من خلال آيات القرآن وهداياته، الأسس الصحيحة التي يعرف بها الرجل المسلم الجزائري رجوليته، وإسلاميته، وجزائريّته الصحيحة، وتعرف بها المرأة المسلمة الجزائريّة، أنوثتها، وإسلاميتها، وجزائريّتها، الصحيحة كذلك، وكانت انطلاقته من الواقع المفترَض، وحواره مع ذلك الرجل، مشيرا إلى تنزيله على الواقع، وداعيا المجتمع إلى العمل على ترسيخ هذه الأوصاف فيهما، حتّى ننهض –كما قال الشيخ- بالرجل والمرأة نهضة صحيحة نرجوا من ورائها كل خير وكمال.

مقال الشيخ ابن باديس هذا يعالج واقعنا المرير، الواقع الذي تخلّى فيه كل من الرجل والمرأة عن هذه الركائز المتينة والأوصاف الحميدة، فأنتجوا لنا ذكورا، وشبه ذكور، مسلمين بالوراثة، جزائريين بالبطاقة، لهذا وجب علينا نحن كمجتمع مسلم جزائري أن نبعث الروح الباديسية في دعوتنا من جديد، ونعمل على تحديث مثل هذه الخطابات ونشرها في المجتمع.

الفرع الثالث: الإصلاح الأخلاقي

عنوان المقال: لا فضل بالمال لمن كان ذا فضل فيه

هذا المقال من منشورات الإمام ابن باديس في مجلّة الشهاب سنة 1929م، يتناول فيه حقيقة التفاضل بين العباد في الدنيا والآخرة.

بدأ الشيخ بيانه لمعاني الفضل، والفاضل، والمفضول، والتفضيل، وأشار بأنّ الله تعالى قد فضل بين عباده بحكمته في العطاء دنيا وآخرة، وأنّ الله تعالى لم يجعل كلّ العطاءات سببا للتفضيل في القدر والمنزلة.

ثمّ أتبع الشيخ كلامه بأمثلة متنوّعة من العطاءات الحسيّة منها والمعنوية، والمتمثّلة في الجسم والعلم، وقوّة العقل والبدن، وأخيرا العطاء في العمل، وبيّن ما يكون منها سببا في فضل القدر في الدنيا فقط، وما يكون منها سببا في فضل القدر والمنزلة في الدارين، واعتمد

[1] آثار ابن باديس، ج3، ص468.
[2] آثار ابن باديس، ج3، ص469.

الشيخ في بيان ذلك كله على الهدايات القرآنية بإسقاطه لآيات التنزيل؛ حيث قال: "فالفضل في الجسم والفضل في العلم سببان في فضل القدر والمنزلة، وبهما فُضل طالوت على بني إسرائيل واختير عليهم ملكاً. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة: 247]، وليس المراد هنا من الجسم كبره وضخامته، بل المراد صحَّته وقوته بقوة فؤاده، فإنّ ضخامة الجسم مع السقم أو ضعف القلب بلاء على صاحبها، وفضل القدر والمنزلة المتسبب عن فضل الجسم والعلم هو فضل يستحق به التقديم في هذه الدنيا، وأما نيل الفضل بهما في منازل الأخرى فمتوقف على العمل بهما"[1].

فانظر معي كيف أسقط الشيخ آية قصة طالوت في سورة البقرة؛ لبيان أنّ التفضيل في الجسم والعلم تفضيل دنيوي، ولن يكون هناك تفضيلا أخرويا إلاّ بالعمل.

وأمّا مثال القوة والعقل فذكر فيه الشيخ تفاضل الرجل على المرأة، فقال"والرجل فُضّل على المرأة في قوة العقل وقوة البدن وكانت قوتاه هاتان سببين في فضله في القدر والمنزلة والتقديم عليها في هذه الدنيا، قال تعالى: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾[النساء: 34]..."[2].

وها هو الشيخ استند في بيان هذا التفاضل الدنيوي في قوتي العقل والبدن بما جاء في آية القوامة من سورة النساء.

وأخيرا يختم الشيخ بما يكون به التفاضل في الدنيا والآخرة، بقوله: "وأما الفضل في العمل فإنه سبب في فضل القدر والمنزلة دنيا وأخرى، قال تعالى: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[النساء: 95]، وتعليق الحكم هو التفضيل بالمشتق؛ وهو المجاهدين، مؤذن بعلية ما منه الاشتقاق وهو الجهاد، فيستفاد من سببيته في الفضل والتقديم في القدر والمنزلة"[3].

لقد ذكر الشيخ ابن باديس تلك الأمثلة التي بين من خلالها ما يكون به التفاضل بنوعيه الدنيوي والأخروي، حتّى يصل بنا إلى بيت القصيد الذي به عنون المقال، وهو عطاء المال، فهل هو سبب في التفاضل أم لا؟ هنا يجبنا الشيخ ابن باديس بقوله: "وأمّا المال فلم يكن- أبداً- سببا في فضل القدر والمنزلة، ولذا قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ﴾[النحل: 71]، فجعل التفضيل فيه فيزيد فيه حظ بعض الناس على بعض، ولم يقل

---

[1] آثار ابن باديس، ج3، ص471.
[2] آثار ابن باديس، ج3، ص472.
[3] آثار ابن باديس، ج3، ص472.

(بالرزق)؛ لأن الرزق ليس سبباً لتفاضل الناس في الأقدار والمنازل لا دنيا ولا أخرى؛ لأن منازل الآخرة يتفاضلون فيها بما قدّموا من صالح الأعمال، ومنازل الدنيا يتفاضلون فيها- على الحق والعدل- بالكفاءات والأخلاق والأعمال"[1].

فالمال إذن ليس سببا للتفاضل لا في الدنيا ولا في الآخرة، كما ذكر الشيخ آنفا، ولكي يؤكّد لنا الشيخ ذلك استرجع ما جاء في قصة طالوت، فقال: "وقدر الله تعالى على بني إسرائيل لما قالوا في طالوت: ﴿ وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ﴾[البقرة: 247]، منكرين استحقاقه للملك بأنه ليس من بيت الملك ولا بذي مال لاعتقادهم أنّ الفضل بمنزلة الملك إنما يتسبب عن النسب والمال، ردّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾[البقرة: 247]؛ ليبيّن لهم أنّ منازل الفضل في هذه الدنيا بالكفاءات الشخصية لا بما هو خارج عنها من النسب والمال"[2].

وبعد أن أنهى التوضيح والبيان والتفصيل من خلال هدايات القرآن وتنزيلاته، التفت إلى القارئ الكريم منبّها ومذكّرا له ومرشدا، فقال له: "فالفضل في منازل الدنيا والآخرة إنما هو بما هو منك، من جسمك وأخلاقك وعلمك وعملك لا بما هو باين عنك ومباين لك من هذا الحطام. حتى إذا حصّلته من حلّه، وأنفقته في محله، كان لك الفضل العظيم بما كان لك فيه من أعمال"[3].

مقال الشيخ يظهر لنا جانبا من الخلال التي كانت منتشرة في عصره، ربما يرجع ذلك إلى الأوضاع الاقتصادية التي كان يعيشها الشعب الجزائري؛ لذا أراد تذكير الناس بأنه لا تفاضل في المال لمن كان ذا فضل فيه، وربطه بالآيات القرآنية لبيان التفاضل الحقيقي الذي يكون سببا للتفضيل في القدر والمرتبة دنيا وآخرة.

ما عسانا أن نقول الآن والجزائر تعيش زمانا أفضل من زمان ابن باديس من الناحية المعيشية، والاستقرارية، لكن بقي التفاضل المالي، بل زاد وانتشر في مجتمعنا، فالنظرات المادية ظلت المقياس الأول للتفاضل في كثير من الشؤون المختلفة بين جلّ الناس بمختلف طبقاتهم، لذا علينا استدراك هذا الأمر بتذكير المجتمع بميزان التفاضل في الدنيا والآخرة كما أرشدنا إليه الإمام.

الفرع الرابع: الإصلاح العقدي

عنوان المقال: التسامح الإسلامي: (نظر المسلمين إلى غير المسلمين ونظر غيرهم إليهم)

المقال الذي بين أيدينا نشره الإمام ابن باديس سنة 1936م، في مجلته الشهاب على

---

[1] آثار ابن باديس، ج3، ص472.
[2] آثار ابن باديس، ج3، ص473.
[3] آثار ابن باديس، ج3، ص473.

جزأين؛ (التسامح الإسلامي1، التسامح الإسلامي2)، وما تركه يعيد الكلام في جزء آخر إلا لأهمية الموضوع، وما هو جار من الأحداث والفتن المتجدّدة التي يؤجّج نارها أعداء الدين من الملل الأخرى بقسنطينة وبونة.

افتتح الشيخ ابن باديس مقاله هذا بإعطاء لمحة حول سماحة الإسلام وما انبنى عليه من الحق وما جاء به للبشرية من خير، لذا قرر الإسلام محبة الإسلام في قلوب المسلمين وكره ما سواه، دون أن يحملوا حقدا على مخالفيهم أو يمسوهم بأذى مقارنة مع غيره من الملل الأخرى، وما انبنت عليه من الباطل، وما أُدخل عليه منه، وما أصيبت به كتبها من التحريف والضياع، لذا كان رؤساء كل ملة ينشرون ذلك الحقد الديني والتعصب، ويوقعون على المخالف أنواعا من الشرور والبلايا والفتن.

ثمّ بدأ الشيخ بذكر مقارنة بين ما يدعوا إليه الإسلام من التسامح والتعايش ونبذ التعصب الديني، وما تدعوا إليه الملل الأخرى كالكاثوليكية، والنصرانية، مزينا كلامه بتنزيلات آيات القرآن وهداياته، ونظرا لجمال هذه المقارنة وعظم الفائدة التي تحويها سأعرضها بأسلوبي الخاص حتّى يسهل استيعابها:

1- ما جاء به الإسلام:

- الإسلام عرّف أتباعه أنّ اختلاف الأمم وتباينهم في نحلهم هو بمشيئة الله وما كانت مشيئته إلا حكمة وصوابا، فقال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾[النحل: 93]، ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾[يونس: 99]، ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾[هود: 118]، ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾[يونس: 100] ؛ لأجل أن يقتلع جذور الحقد الديني والتعصب على المخالف من قلوبهم.

- الإسلام عرّف أتباعه وجه الحكمة في هذا الاختلاف، وهي أنّ تباين أعمالهم بتباين مشاربهم ومداركهم مما هو ضروري لنمو العمران وتقدم الإنسان وظهور حقائق الأفراد والأمم بالابتلاء والاختبار فيما أوتيت من عقول وإرادات وقوى وأعمال. فقال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾[المائدة: 48].

- الإسلام أقرّ المخالفين على ما ينتحلون ويعتبرونه دينا، وسماه دينا، وحَكم بأن يُترك لهم، فقال: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾[الكافرون: 6].

- الإسلام أقرّ للمخالفين معابدهم، وذكرها بما يقتضي وجوب احترامها بما يذكر فيها من اسم الله، وقرنها بالمساجد تأكيداً لذلك الاحترام فقال: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾[الحج: 40].

- الإسلام أقرّ للمخالفين كتبهم لهم، وسمّاهم أهل الكتاب، وأقرّ ما يعملونه من دينهم

وسمّاه عملا فقال: ﴿ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾[الشورى: 15].

- الإسلام أقرّ للمخالفين أحكامهم فيما بينهم، ومنع من التعرّض لهم إلا إذا جاءوا بطوعهم واختيارهم متحاكمين إلى الإسلام فقال: ﴿ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾[المائدة: 42] [1].

ببيان هذه الحقائق من سنن الله وحكمته، ربَّى الإسلام المسلمين على التسامح وكوَّن نظرهم لغيرهم من أهل الملل، فهم لا يرون في اختلاف تلك الملل إلا شيئاً قد قضاه الله، فسلمت قلوبهم من الحقد الديني الممقوت والتعصب المذموم.

2- ما جاءت به الهيئات الدينية النصرانية، والكاثوليك

- هذه الفرق تعلم أتباعها صلوات يومية عدائية ترسخ جذور الحقد والتعصب الديني، وهي دعوات تُكرَّر في أوقات مخصوصة ضد الإسلام والمسلمين، وهذا نص صلاة من الصلوات اليومية: "...وأقدم إليك صلواتي من أجل الغاية التي أنت ساع في سبيلها كل يوم على المذبح، وأقدم إليك صلواتي بصفة أخص، من أجل اتخاذ كل الكاثوليك، ومن أجل محاربة الإسلام"[2].

- هذه الفرق تنشر التبشير، وغاية هذا التبشير هو النضال ضد الإسلام.

ثمّ التفت الشيخ ابن باديس إلى فروقات من واقعه، لكي يبين للمسلمين الجزائريين فرقا آخر يعيشونه في واقعهم، يبيّن فيه مظهرا آخر من مظاهر التسامح الإسلامي، وعداء النصرانية والكاثوليك، وهذه الفروقات هي:

- المسلمون لا تجد في صحافتهم ومجلاتهم الفصول العريضة والمقالات الطويلة تبحث في النصرانية، إلا إذا كان من باب رد العدوان.

- الهيئات الدينية النصرانية لكل هيئة منها مجلتها ويكاد لا يخلو عدد منها من الكلام على الإسلام، وتصويره بالصورة المنفرة البغيضة المثيرة للأحقاد والحاملة على التعصب.

وأخيرا ذكر الشيخ ابن باديس سبب إيراد لهذه المفارقات، فقال: "نكتب هذا ليطّلع قراؤنا على حقائق واقعية تتصل بالحياة الاجتماعية بينهم وبين من يساكنونهم في وطنهم، وليعلم إخواننا المسلمون عظيم نعمة الله عليهم بما شرعه لهم من أصل التسامح العظيم فيزدادوا به تمسكا، فيعيشوا سالمي الصدور من داء الحقد الديني والتعصب الممقوت، وليعرف الذين يبثون تلك السموم أن أعمالهم لا تخفى على غيرهم، فعسى أن يقلعوا عنها ويرجعوا للعمل معنا على بث التسامح بين عباد الله"[3].

---

[1] آثار ابن باديس، ج3، ص489.
[2] آثار ابن باديس، ج3، ص491.
[3] آثار ابن باديس، ج3، ص493.

هذا المقال كما نرى دلالة على النظر في أحوال الواقع الذي يعتريه الحقد والتعصب الديني، والعداءات المعلنة؛ لذا أراد الشيخ ابن باديس تحذير وتنبيه المسلمين الجزائريين لهذا الأمر ببيان سماحة دينهم، وموقفه من الديانات التي يتعايشون مع أهلها، وعداوة من يعايشونهم من أصحاب الملل الأخرى، بطريقة المقارنة، وربط ذلك بآيات وهدايات القرآن الكريم بصورة العموم وظاهر المعاني.

في الحقيقة حتّى الواقع الذي نعيشه يا شيخ لم يسلم الإسلام فيه من هذه العداءات والصراعات، بالرغم من أن نسبة تواجد هذه الملل في بلادنا ضئيلة جدا، ولكن تنوّعت وسائلهم وتطوّرت في نشر عداءاتهم وشبهاتهم حتى ولجت بيوتنا من غير إذن، يقابله في الوقت نفسه خمول وجمود مسّ رجال الدعوة والإصلاح، فمجهودهم لا يقارن بمجهود أعداء الدين، وما نظنّه إلا بسبب ضعف الدين فينا وانقسامنا، حتّى أضحينا لقمة سائغة في نظرهم، والله عز وجل يقول: ﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ ﴾[محمد: 7].

الفرع الخامس: الإصلاح الديني

عنوان المقال: خطبة منبرية (سرّ التضحية)

هذا المقال هو من منشورات الشيخ ابن باديس سنة 1934م في مجلة الشهاب، وهي عبارة عن خطبة لعيد الأضحى، وذلك استجابة لطلب الكثير من الإخوة حتّى يخطبوا بها.

ابتدأ الشيخ ابن باديس خطبته كسائر الخطب المنبرية بالحمد والثناء، ثم الصلاة على خاتم الأنبياء، وبعدها ذكّر بيوم العيد وفضله، وبعدها انتقل إلى ذكر إشارات مهمة من قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام آخرها استجابته وابنه إسماعيل عليهما السلام لأمر ربهما، وبقيت سنة الضحية في الملة الإبراهيمية، والشريعة المحمدية، تذكاراً بهذا العمل العظيم، والإسلام الصادق لرب العالين، واستنبط الهدايات من هذه القصّة القرآنية، لبث روح التضحية والاستجابة عند المسلمين، فقال: "...ليتعلم المسلمون التضحية لله بالنفس والنفيس، وليعلموا أنّ المسلم من صدّق قوله فعله، ومن إذا جاء أمر الله كان لله كله. فتدبروا أيها المسلمون في هذا السر العظيم ومرنوا أنفسكم على التضحية في كل وقت في سبيل الخير العام بما تستطيعون ولا تقطعوا عن التضحية ولو ببذل القليل، حتى تصير التضحية خلقا فيكم في كل حين..."[1]، ثمّ تلا آية قوله تعالى: ﴿ رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠٠ فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ۝١٠١ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٠٢ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ۝١٠٣ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[الصافات: 100 – 105].

[1] آثار ابن باديس، ج3، ص530.

كما رأينا الشيخ ابن باديس في هذه الخطبة النموذجية ابتدأ كلامه بذكر معالم القصة القرآنية، ثمّ استخرج مكنونها وهدايتها، وربطها بواقع المسلمين؛ حيث رغّبهم في تمرين الأنفس على التضحية في سبيل الخير العام، ولو ببذل القليل، ثمّ أورد آيات قصة إبراهيم عليه السلام، وفي هذا التنزيل دعوة غير مباشرة إلى التضحية بالصمود ضد الاستعمار.

أشهر تنزيلات الخطباء لآيات قصة إبراهيم عليه السلام هو برّ الوالدين، ومنذ أن ابتدأتُ حضور الخطب المتعلّقة بعيد الأضحى لم أسمع مثل هذا التنزيل المتعلق بالتضحية بالنفس في سبيل الخير، واستنباط مثل هذه الهدايات والتنزيلات تنبئ على الرؤية الواقعية والدقيقة التي تعبّر عن حالة المجتمع.

خاتمة

بعد هذه الجولة العلميّة الوعظية الإصلاحية الممتعة التي قمت بها مع الشيخ ابن باديس في منشوراته، أصِل الآن إلى نهاية هذا العمل، ولكن قبل الافتراق أودّ أن ألخّص لك عزيزي القارئ أهمّ النّتائج التي توصّلت إليها من خلاله، وأرفقها ببعض التّوصيات:

أوّلا- أهمّ النّتائج:

1- البيئة الأسريّة الملائمة ساعدت في تكوين الشخصيّة العلميّة للشّيخ ابن باديس.

2- بالرغم من قلّة النماذج إلاّ أنّ أساليب الشيخ ابن باديس فيها متنوّعة.

3- من أهمّ أساليب التفسير التي تعنى بهدايات القرآن وتنزيلها على الواقع هو أسلوب التفسير الموضوعي، ولقد رأينا ملامحه عند ابن باديس من خلال موضوعاته.

4- الأسلوب الجديد الذي برز عند الشيخ ابن باديس في التنزيل القرآني هو التنزيل انطلاقا من المقارنة.

5- قوة اطّلاع الشيخ ابن باديس الشامل على قضايا ومستجدات العصر الذي يعيشه.

6- الملكة التفسيرية التي يمتلكها الشيخ مكنته من سلوك الطريق الصحيح في ربط نصوص الوحي بالواقع.

7- تنزيلات الشيخ ابن باديس جاءت شاملة للعديد من القضايا السياسية، والدينية، والعقدية...وغيرها.

ثانيا- أهمّ التّوصيات:

1- إعداد دراسات تُعنى بدراسة معالم التفسير الموضوعي في آثار الشيخ ابن باديس.

2- هناك مقالات ومنشورات باديسية، لازالت دقات قلب الإصلاح تنبض فيها، حُقّ لها إعادة نشرها في المجلات الجزائرية الحالية.

3- رسالتي إلى الخطباء والوعاظ، بأن يعتنوا بهذا التراث الباديسي القيم، من حيث الاستفادة من منشوراته ومقالاته وخطبه الإصلاحية.

وأخيرا هذا ما وُفّقت لكتابته، وأرجوا أن أكون قد وفّيت هذا الموضوع بعض حقّه، واللهَ

أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم، وأن ينفع به من كتبه وقرأه وصحّحه، وصلّ اللهمّ وسلّم على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدّين، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

قائمة المراجع والمصادر

- القرآن الكريم برواية حفص
- ابن أبي دينار، كتاب المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ط1، مطبعة الدولة التونسية، تونس، 1286هـ.
- أحمد حماني، صراع بين السنة والبدعة، دون ط، دار البعث، دون تط.1عمّار طالبي، آثار ابن باديس، 80/1.
- أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997م.
- الحجوي، الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، اعتنى به: أيمن صالح شعبان، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1416هـ/1995م.- آثار ابن باديس، ت: عمار طالبي، ج3، ص413، ط1، 1388هـ، 1968م، دار ومكتبة الشركة الجزائرية.
- الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ت: أحمد محمد شاكر، ط1، 1420هـ، 2000م، مؤسسة الرسالة.
- القاسمي، محاسن التأويل، ت: محمد باسل عيون السود، ط1، 1418هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
- تفسير المراغي، ط1، 1365هـ، 1946م، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر.
- صحيح البخاري، ت: محمد زهير بن ناصر الناصر، ط1، 1422هـ، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي).
- عبد الحميد بن باديس، مجلة الشهاب، الجزء11، مجلد 11، قسنطينة، الجزائر.
- عبد الرشيد زرّوقة، جهاد ابن باديس، ط1، دار الشهاب، بيروت، 1420هـ/1999م.
- عبد العزيز فيلالي، وثائق جديدة عن جوانب خفية في حياة ابن باديس الدراسية، بدون ط، دار الهدى، عين مليلة، دون تط.
- مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة: عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، دون ط، دار الفكر، دمشق، دون تط.
- محمد الدراجي، الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد، دون ط، دار الهدى، 2012م.
- محمد بهيّ الدين سالم، ابن باديس فارس الإصلاح والتنوير، ط1، دار الشروق، القاهرة، 1420هـ/ 1999م.
- مسند الإمام أحمد ت: شعيب الأرنؤوط، وآخرون، ط1، 1421هـ، 2001م، مؤسسة الرسالة.
- مصطفى احميداتو، عبد الحميد وجهوده التربوية، ط1، وزارة الاوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، 1418هـ/1997م.
- مفدي زكريا، الذكرى العشرون لوفاة الشيخ عبد الحميد بن باديس، مجلة: الفكر التونسية، ع 78، ماي 1960م، تونس.
- موقع الشيخ ابن باديس على النت: http://www.binbadis.net، تاريخ الاطلاع: 2015/04/20، على الساعة: 06:57.